مجمع اللغة العربية
القاهرة
٢٠٠٧

مجامع اللغة العربية ..
تحديات وعوائق

أ.د/عبد العزيز المقالح

مقدمة :

لم تعد اللغات في عالم اليوم –وفي زمن العولمة البالغة الشراسة – لسان الأمم ووعاء معتقداتها وثقافتها فحسب بل صارت عنواناً كبيراً على سيادتها وعلامة من علامات وجودها وهويتها. وبهذا المعنى تصبح التحديات التي تواجه اللغة العربية في هذا المنعطف الخطير من التاريخ تحديات لكل أبناء الأمة ، ولكل من يحمل مشروع تغيير في أي ميدان من ميادين العلم والمعرفة والحياة. وفي هذا البحث إشارات ومحاولة تذكير وتحذير من مؤثرات المخاض الصعب على الوصول باللغة وبالأمة إلى الطريق المسدود والوقوف من الصراع الدائر موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث.

وإذا كانت مسؤولية درء ذلك الخطر مسؤولية مشتركة بين مثقفي الأمة وأجهزتها الإعلامية والتربوية والسياسية فإن مجامع اللغة العربية هي الأَوْلى بالتصدي لتلك العوائق والتحديات ، لكن عليها –أي المجامع– أن تتنبه أولاً إلى وضعها العلمي والإداري والمهني وأثرها في الجمهور وصلتها بالمجتمع ، وأن تراجع وسائلها في الإذاعة والاتصال ليكون أثرها واضحاً .

بين يدي الموضوع

في كتابه (العيش على الحافة) يصرخ الدكتور شكري محمد عياد ، بأعلى ما يستطيع الصوت أن يرتفع قائلاً: "يقتلني عدم اللامبالاة"[1]. وتحت هذه الصرخة تندرج مجموعة من الأخطار التي تصنعها اللامبالاة وعدم الاكتراث في حق الناس والأوطان، في حق الماضي والحاضر والمستقبل، في حق اللغة والاقتصاد ، والتعليم ، وفي حق المرأة والرجل، وفي حق المعرفة بكل آفاقها التي تبدأ مع الكلمة وتنتهي بالحضارة . وهذه الصرخة العالية الحارقة التي أطلقها أستاذنا الجليل في أواخر أيامه كانت خلاصة تجربة طويلة مع الواقع العربي بكل معوقاته الفكرية والاجتماعية والثقافية الناتجة عن اللامبالاة وعدم الاكتراث وهو الوباء الذي يجتاح هذه الأمة ويكاد يرسم علامات اليأس على الاتجاهات كلها، ومنها الاتجاه الذي يبدأ من اللغة ويتمثل في الثقافة ويشكل هوية الأمة.

وباستثناء جهود المجامع اللغوية وما تبذله، في رعاية لسان الأمة وجوهر ثقافتها، وهو جهد بدأ يتضاءل عاماً بعد عام، فإن أحداً لا يولي اللغة أدنى اهتمام، لا في محيط الأسرة ولا في رحاب المدارس والجامعات، ولا في الوزارات والمؤسسات الحكومية التي بات بعضها يستخدم لغات أخرى نكاية باللغة العربية وسخرية منها وانتقاصاً من مكانتها، وهو ما يعكس حالة من اللامبالاة التي لا تقتل الأشخاص وإنما تقتل الثقافة والأمة وتدمر كل الجسور التي تربطنا بالماضي والمستقبل، إذ لا مستقبل لأمة لا ماضي لها ولا موروث ثقافي تعتز به وتنهض على أساسه، وتضيف إليه وترفده بالجديد من الإبداع والتجارب الناتجة عن معايشة الواقع ومعاناته.

ويتبين لدارس الواقع العربي الراهن أنه منذ بداية العصر الحديث والعرب يقفون –على المستوى القومي– في مفترق طرق التغيير السياسي والاقتصادي والثقافي، وقد اعترضت طرق هذا التغيير كثير من العوائق، وفي مقدمتها عائق الإخطبوط الاستعماري الذي لا يوجد أدنى شك في أنه عمل كل ما في وسعه لشل حركة الأقطار العربية ، وحاول بالقوة حيناً وبالخداع حيناً آخر، أن يفرض رؤيته الاستعمارية ومراجعه الهادفة إلى تأخير تطور هذه الأقطار والوقوف في وجه تطلعاتها الوطنية والقومية . وإذا كانت بعض هذه الأقطار قد استطاعت بكفاحها الطويل، أن تنتزع شيئاً من استقلالها وتحقق قدراً من تطلعاتها ، فإن الطريق إلى كل ما تصبو إليه ظل مرصوفاً بالعوائق ومحفوفاً بمنزلقات قطرية وقومية وعالمية.

ولعل من أهم المنزلقات الذاتية قبول كل قطر عربي بتحقيق استقلاله الوطني في غياب الشعور القومي وعدم التركيز على التحول الشامل ، وخطورة هذا المنزلق تأتي من حيث القبول بالاستقلالية المجزأة بوصفها خيراً من البقاء في قبضة الاحتلال . لكنه ما كاد يتحقق حتى صار الهدف النهائي وما أدّى إليه من تثبيت الدولة القطرية على حساب الدولة العربية الواحدة والتركيز على ما نتج عن القضايا الإقليمية المحلية الضيقة إلى أن يختفي أو يكاد مفهوم الأمة الواحدة من خلال الفعل ، وإن كان الشعور بالوحدة قد ظل حبيس الوجدان العام الذي ينعكس على الأقوال لا على الأفعال . وتم بذلك إهمال ثروات الأمة، البشرية منها والمادية وما تكتنزه من إمكانات هائلة لمقاومة كل القوى الطامعة، وأهم من ذلك مقاومة حالة العجز العام وما يصدر عنه من معوقات لا حدود لها.

أما المنزلقات القومية ، وهي الأخطر، فقد تمثلت في بناء الأجهزة الثقافية والتعليمية والبحثية في الأقطار العربية على أساس قطري إقليمي يجعل

من كل قطر أمة قائمة بذاتها، ولا يكترث، أو يبالي، بما سوف يترتب على ذلك مستقبلاً من تفتت مكونات التوحيد وعناصره الأساس وفي مقدمتها اللغة التي تضاءل الاهتمام بها لصالح العاميات واللهجات وزحف المفردات والتراكيب والأساليب الأجنبية الوافدة.

في ظل القطرية والتفكك القومي نشأت مجامع اللغة العربية، وكانت في البداية محاكاة وتقليداً للآخرين ، ولا عيب في المحاكاة والتقليد إذا كانا نابعين من احتياج حقيقي ومن رغبة في الذهاب لاحقاً إلى درجة الإبداع والابتكار. وكان مجمع اللغة العربية الذي أنشى بالقاهرة في عام ١٩٣٢م ، أول هذه المجامع العربية وقد تم إنشاؤه ليحافظ على سلامة اللغة ويجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، ملائمة لحاجات العصر". وكان المجمع العلمي العربي قد نشأ في دمشق عام ١٩٢١م ، للغرض نفسه تقريباً. وتبعهما المجمع العلمي العراقي في عام ١٩٤٧م للعناية باللغة العربية والبحث في آدابها ولدراسة علاقات الشعوب الإسلامية ، ونشر الثقافة العربية ، وحفظ المخطوطات وإحيائها وتشجيع الترجمة والتأليف.

ومن المؤكد أن مجمع القاهرة، وهو أكبر هذه المجامع وأغناها بالمقومات العلمية، قد نجح على رغم المعوقات التي هي الطابع العام في أوضاعنا العربية، في مهمته النبيلة وتركزت أهدافه على إبراز المكونات والخصائص العامة والخاصة للغة العربية، ونجح في اكتشاف المنافذ الخلاقة لتطوير قواعد هذه اللغة بما لا يتنافى مع جوهرية تلك القواعد وأسس بقائها . وواجه هذا المجمع منذ ظهوره عوامل التغريب والاستلاب في الواقع الذي كان قد انعكس بقوة على اللغة وآدابها واستطاع بمدة وجيزة أن يثبت وجوده ويشد إليه أنظار المهتمين والمتخصصين من أدباء ومفكرين وأساتذة جامعات.

وهذه الإشارات لا تعني التقليل من الدور الذي قامت به المجامع الأخرى ومكتب التعريب في المغرب من جهود مساندة لمجمع القاهرة ، وما قدمته من اجتهادات متميزة وما حققته مجلاتها العلمية من خدمة بالغة الأهمية للغة العربية وللناطقين بها ، وستظل جهود هذه المجلات وأبحاثها موضع تقدير واعتزاز من كل عربي حريص على سلامة اللغة وإضاءة موروثها النحوي والصرفي ، والتركيز على معاجمها وما تدخره من كنوز هذه اللغة .

وإذا كانت مؤسساتنا العلمية والثقافية كالمؤسسات السياسية والاقتصادية تتعرض لمنطق المد والجزر فقد صارع المجمع اللغوي في مصر على اتجاهين أحدهما علمي والآخر مادي، وحافظ على عدد من قياداته اللغوية التي أسهمت في إحياء اللغة العربية وأخلصت لها وأمنت بعبقريتها وبقدرتها على تجاوز الهوة التي تفصلها عن ثقافة العصر والتعبير عن الأفكار والعواطف بالقوة نفسها التي لأهم اللغات المتداولة بشكل واسع. وإلى أولئك المجمعيين الذين حملوا مسئولية المجمع في سنواته الأولى وإلى وقت قريب، إليهم يرجع الفضل في التمكين للمجمع من البقاء وفي التأكيد على أن اللغة العربية لغة تفاعل مع الحياة واستيعاب العلوم والتعبير عن الفنون باقتدار، والترجمة عن الوجدان بالأداء الأدبي العميق وأنها لغة متمثلة لما يرد عليها تُخضع ما تمتصه لقوانينها الذاتية ، ترجمة أو تعريباً ، وليست لغة طاردة، تحاصر نفسها بالأسلاك الشائكة والأسوار المنيعة.

كما أثبت المجمع من خلال مقترحاته وقراراته العلمية أن اللغة العربية تمتلك مخزوناً هائلاً من التراكمات الأدبية والاجتماعية والاستعمالات الرفيعة لا تخطى الجزئيات ولا تتهاون مع الكليات، فهي لغة حضارة وعلى الرغم من أن تاريخها يؤهلها لتكون واحدة من لغات العالم الجديد بكل مخترعاته وإضافاته . ومن يتذكر الألفاظ المستخدمة (كالطائرة والهاتف السيارة

والدّراجة والقطار وغيرها) يدرك أن المجمع حارس حقيقي للفصحى ومقدرتها على دخول معترك الحياة الجديدة بقدر من الثقة القائمة على الانفتاح والإصرار على اكتساب الخبرة الجديدة بالمعايشة والمشاركة والبحث الدؤوب.

وهنا يأتي سؤال استقلالية المجامع عن بعضها وأي فرق يبقى بينها وبين دولها في الاستقلالية القطرية علماً بأنها مؤسسات علمية وأن المجامع –كما يعلم الجميع– تتألف من علماء وأن طموحاتهم علمية لا علاقة لها بالسياسية الإقليمية وما تشرعه لاتباعها من مواقف وما قد يثور بين هذه الأنظمة من ضغائن وخلافات ما أنزل الله بها من سلطان، إلاَّ أن الأنظمة القطرية تلقي بظلالها على هذه المجامع وتقيد مسارها بقيود منظورة وغير منظورة فهي التي تنفق الرواتب والمساعدات لهذه المجامع يضاف إلى ذلك، وهذا هو الأهم، تشتت الجهود وبعثرة الاجتهادات وتكرار الافتراضات، وهو ما لا وجود لمثله في مجامع الشعوب الموحدة ذات الكيان القومي والدولي الواحد كفرنسا على سبيل المثال حيث تنصب جهود المجتمعين في إناء واحد .

هذا العائق من وجهة نظري هو السبب الرئيس في تعثر عمل المجامع العربية وضعف أثرها وفي محدودية دورها في إنجاز المهمة التي وضعتها على عاتقها، ولم تنجز منها الشيء الكثير كما كان مأمولاً ومتوقعاً. وتأتي هذه المعوقات التي لا تخلو من أهمية البطء في العمل المجمعي وإطالة النظر في بعض، أو في كل، المقترحات والقرارات في زمن يسير كل شيء فيه بسرعة الضوء.

المجامع اللغوية والتحديات المتلاحقة

قبل أن تستكمل العولمة بسط نفوذها وتعميق تحدياتها في أرجاء العالم -والعالم الثالث بخاصة- ينبغي على أبناء هذا العالم الأخير -ونحن منهم- أن لا يكتفوا بإدراك مخاطر العولمة والتنبه إلى تحدياتها للإنسان ومعتقداته ومعارفه وعلى اللغة التي هي وعاء هذه المعتقدات والمعارف؛ بل عليهم أن يسارعوا إلى إعداد استراتيجية للمواجهة لا تختلف عن تلك الاستراتيجيات التي تعدها الأمم لمواجهة الغزوات السافرة والمقنَّعة. وإذا كان المهتمون باللغة العربية -من داخل المجامع ومن خارجها- يرفعون أصواتهم منذ وقت طويل -وقبل أن تخرج العولمة من مكمنها- في نداءات لم تتوقف إلى العناية باللغة العربية والأخذ بالمؤسسات التي تسعى إلى تطورها وتمكنها من القدرة على مواجهة التحديات العديدة ، أقول إذا كان أولئك المهتمون يرفعون أصواتهم بوضوح ويقدمون أدلتهم بدقة علمية متناهية، فأين الحصاد المأمول؟ ولماذا كلما اشتدت الهجمة تراجعت المواقف وضعفت المواجهة؟

وسؤال آخر أهم ، وهو عن المحور الثاني المقترح من لدن المجمع وهو الذي أجهدت نفسي للكتابة حوله وعنوانه "أبرز العوائق والتحديات التي تواجهها هذه المجامع" أحقاً أنَّ المجامع وحدها هي التي تواجه هذه التحديات، أم أن الأمة بأسرها، بكامل مؤسساتها، تواجه هذه التحديات التي هي أكبر من المجامع وأكبر من إمكاناتها، ومن كل محاولة لا تنطلق من استراتيجية وطنية وقومية قادرة على مواجهة كل الأخطار والتحديات التي تواجه اللغة العربية في غياب الوعي التام بالنتائج المرعبة التي تترتب على استشراء هذه الأخطار والتحديات التي يصعب على مجمع واحد أو عشرات من المجامع اللغوية أن تتصدى لها أو تعمل شيئاً إيجابياً لوقف زحفها لاسيما أن فيها الواضح السافر، وفيها المبهم الغامض وذلك يقتضي رؤيةً عميقةً وخطة

شاملة لا تكون فيها المجامع سوى مراجع للاستشارة وإبداء الرأي في المصطلحات والمستجدات، على وفق الملاحظة العميقة التي أبداها مجمعي عتيد هو الدكتور صالح أحمد العلي إذ قال: "اللغة العربية اليوم تواجه تطورات وتتعرض إلى تحديات سيؤدي طغيانها وتقبلها إلى تشويه أقوى دعائم الثقافة وأبرز مظاهرها ، وأن العمل على سلامة اللغة العربية كان وسيبقى الواجب الأول للمجمع الذي يتحمل في ذلك المسئولية الكبرى، وهذا يتطلب منه تحديد مفاهيم الكلمات وإيجاد مقابل ليعطي المستجدات والإبداعات والتطورات هي الأبرز والأظهر، فإني أود الإشارة إلى جانب لا يقل أهمية عما سبق، ألا وهو تحديد المعاني وتثبيتها لتنقذ الأمة من أحد أسباب البلية والتناقض والتفكك"[٢] .

وإذا كان للشعراء من فضل على أمتهم فإنهم يكونون دائماً الأسرع في استشراف الأخطار، وفي أن يستشفوا ما وراء الزمان والمكان يستوي في ذلك السياسي أو الثقافي. وفي خطابه أمام مؤتمر الشعر الدولي العربي الذي انعقد في القاهرة من ١٠ إلى ١٧ فبراير ٢٠٠٧م ، ارتفع صوت الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي معلناً بين شعراء الأمة أن "الشعر في خطر لأن اللغات القومية في خطر" واستمر في تحديد معالم الخطر قائلاً: "في القرن العشرين الذي تحررت فيه الأمم واستقلت الدول وأسست المنظمات الدولية المختصة بالدفاع عن الإنسان وحقوقه السياسية والاقتصادية والثقافية اندثرت ثلاثمائة لغة ولهجة ، كل أربعة أشهر طوال القرن العشرين كانت تموت إحدى اللغات ، تماماً كما انقرضت مئات الأنواع من الحيوانات والطيور، والنباتات والفراشات، في أنحاء العالم . ومن المتوقع في ظل العولمة المتوحشة أن يتصاعد عدد اللغات التي ستندثر ، وعدد الكائنات التي ستنقرض"[٣]

لم يكن حجازي يكتب قصيدة ، أو يحلق في عالم الخيال، بل كان يضع يده، قبل كلماته، على الجرح ويسند حديثه بالأرقام ، أرقام اللغات التي اندثرت والتي في طريقها إلى الاندثار، بفضل العولمة الطاغية من جهد وبفضل اللامبالاة وعدم الاكتراث اللذين تبديهما الأنظمة الحاكمة بحاضر اللغة ومستقبلها من جهة ثانية. وفي ضوء مراجعة واقعية لدور المجامع اللغوية ، وما حققته أو فشلت في تحقيقه، يتضح لنا أن هذه المجامع لم تَنْلْ جهداً في تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها. لكن الظروف العامة، السياسية والاقتصادية والثقافية التي شهدها الوطن العربي طوال فترة عمل هذه المجامع لم تكن مواتية لتحقيق الغرض المنشود من إنتاج هذه المجامع. يضاف إلى ذلك قبولها بالتعددية، وما أدت إليه من تشتت في جهود العلماء وعرقلة المسار الفاعل رغم تحقق بعض الآثار الإيجابية التي لا يمكن إغفالها.

أمامي الآن –أثناء أعداد هذا البحث– رأيان قديمان متعارضان ومختلفان حول مسيرة أعمال المجمع اللغوي في القاهرة، والرأيان لعلمين من أعلام المجمع هما: الدكتور إبراهيم مدكور الأمين العام الأسبق للمجمع والرئيس السابق له، والكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور. الأول يثني على التأني والتؤده والتزام جانب الحذر والخشية من التسرع، والآخر يدعو إلى سرعة الإجراءات المتعلقة بتطوير اللغة وخروج المجمع من صومعته، وخلوات أعضائه، إلى الحياة بناسها ومتغيراتها.

في كتاب (مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ١٩٣٢–١٩٦٢م) يصدّر الدكتور إبراهيم مدكور هذا الكتاب بالعبارات الآتية: "درج المجمعيون على أن يعملوا في صمت وأن يتابعوا السير في هدوء وروية، مؤمنين بضرورة تطور اللغة ومسايرتها لحاجات العصر ومقتضياته وموقنين بأن للزمن يداً كبرى في هذا التطوير . ويرون أنه لابد من أن يحاط بقيود وضوابط حثيثة أن يعدي على تراث خالد، أو أن تؤدي العجلة إلى بلبلة واضطراب ، وهم يضعون من قاعدة أو يتخذون من قرار ، إنما ينشدون التيسير دون خروج

على القواعد الثابتة، ولا تجيء قراءهم إلاَّ بعد بحث ودرس وأخذ ورد، وتحرير وتمحيص، على أنهم لا يترددون في أن يعيدوا النظر إذا اقتضى الأمر، وكثيراً ما يقنعون بالحل الوسط والخطوة الهادئة ، لأن طبيعة اللغة تأبى الطفرة، وعامة الناطقين بها أميل إلى المحافظة وأكثر استمساكاً بالقديم المألوف، ولا جدوى من حل لا يعمل به"[٤].

أما الأستاذ محمود تيمور، فلا يتفق في شيء مما ذهب إليه الدكتور مدكور بل يدعو إلى تحريك البركة الأسنة معارضاً الأبطأ فيقول: "كل شيء يتحول ويتطور ويساير الحياة الحديثة ويستجيب لها سنة الله في خلقه، وها هوذا المجمع اللغوي.. كان يحيا في نشأته الأولى حياة عزلة ، حياة راهب متبتل يعيش في صومعته للتعبد. أعضاؤه علماء خلصاء يعملون لخدمة العلم واللغة ، دون أن يبحثوا جدياً في عملهم: هل يتصل بالحياة الاجتماعية من قريب أو من بعيد؟ هل يحسون كبير إحساس بمطالب الأمة في تطورها الثقافي؟ وجاءت الهزة الكبرى ، وانبعث الوعي الدافق ، حتى تغلغل إلى صوامع الرهبان والعبَّاد ... إن هؤلاء ليعلمون اليوم أن العبادة الحقة هي إلاَّ يقصر العابد نفسه على ترتيلات ودعوات، حابساً نفسه في صومعته، مناجياً ربه فيما بينه وبين خلوته .. إن هؤلاء يعلمون اليوم أن العبادة الحقة هي أن تعمل عملاً مفيداً موقوف الصلة بالحياة التي تحياها، هي أن تحول دعواتك وصلواتك إلى أعمال وحركات ، هي أن تحول تسبيحاتك وهمويماتك إلى أقوال فعالة وخطط عملية تخدم الإنسان من حولك، هذه هي فكرة العبادة الحقة ، وجوهرها الأصيل كما يجب أن تفهم في حياتنا العصرية"[٥].

وانتهى مقال الأستاذ تيمور بقدر من التفاؤل في اتجاه التحول الذي طرأ على المجمع اللغوي أو الذي ينبغي أن يطرأ عليه: "بالأمس كانت أسطورة أهل الكهف تعقد حول المجمع خيوط العناكب من "ارزير" و "جماز" و "عرعور" وما إلى ذلك من ألغاز لغوية أو بالأحرى هكمات شعبية ما أنزل

الله بها من سلطان، أما الآن فقد تزايلت تلك الأسطورة وحل محلـــها خطـــة عصرية تساير الزمن في تقدمه، وتواكب المجتمع في تطوره وإيمانـــه بفجـــر جديد".

وددت لو أطلت الوقوف عند مقال المجمعي الراحل الأســـتاذ محمـــود تيمور لأن الواقع الراهن للمجامع العربية يستدعي الوقوف طويلاً عند مثل هذه الملاحظات الحادة والجادة، للتأكد من أن هذه المجامع لم تدخل من جديد في أسطورة أهل الكهف، وأن نشاطها العلمي اللغوي يتسع ويواكب حركة الحياة وما استجد فيها من علوم وأفكار ومخترعات، ولكي نتأكد أن العزلـــة القديمة كان لها ما يبررها، ولم تخلفها عزلة جديدة في واقع عربي مضـــطرب صارت اللغة فيه هي أخر ما يستحق الاهتمام ، وهذا هو أكبر تحد تواجهـــه المجامع اللغوية، وهو تحدٍ ليس له من مهرب ما لم تتنبه الأنظمـــة العربيـــة إلى خطورة ما تتعرض له اللغة العربية من عدوان وانتهاك وما ينتظرها على أيدي المؤسسات الثقافية والإعلامية من تراجع وانكسار.

ومن تحصيل الحاصل القول بأن المجامع العربية تواجه ما لا حصر له من التحديات والمعوقات الذاتية والموضوعية. في مقدمة هذه المعوقـــات الذاتيـــة تعدد المجامع وتحولها من فروع لمجمع رئيس إلى مجامع مستقلة يعمـــل كـــل واحد منها على حدة وكأنه الوحيد الموكل إليه أمر اللغة العربية وما تتعرض له من ابتلاء داخلي وخارجي. وصارت حال هذه المجامع –من هذه الزاوية– شأن حال الأقطار العربية نفسها التي قامت على أنقـــاض الدولـــة العربيـــة الواحدة للوطن العربي الواحد وسرعان ما تحولت إلى دول ودويلات إقليمية تتعصب كل دولة لنظامها وتفتعل المخاوف وتشـــدد في نظـــام الجـــوازات والتأشيرات واختفت صورة الوطن الكبير الذي كان العربي يسير فيه مـــن أقصى المغرب إلى أقصى المشرق دون جواز ولا تأشيرة، سواء كـــان ذاهبـــاً

لطلب العلم أو للحج أو للتجارة أو طلب الرزق فلا يجد من يعترضه أو يطلب إثبات الجنسية، فهو عربي جنسيته في لغته. ومن هنا يصح لنا ونحن نحاول تصور التحديات التي تواجه المجامع العربية أن تضع في بدايتها:

أولاً: تحدي التعددية غير المثمرة ، فقد أسهمت هذه التعددية كما سبقت الإشارة في تشتت الجهود وبعثرة الإمكانات، وفي تأكيد المظهرية العددية، صحيح أن جهوداً قد بذلت بإخلاص من لدن القائمين على هذه المجامع ولاسيما في كل من دمشق وبغداد. وما رافق ظهور المجمعين من إصدار مجلتين خاصتين بالمجمعين هما إلاَّ أن الحصيلة من ناحية خدمة اللغة العربية نفسها وإنجاز بعض المعاجم المهمة كالمعجم التاريخي مثلاً قد ظلت محدودة. يضاف إلى ذلك حالة من التنافس غير المحمود يطرح وجود هذا العدد من المجامع الذي يتزايد مع الزمن ، وإن لم يظهر التنافس على السطح، وشيء آخر يرتبط بهذا التحدي الناتج عن التشتت، وأعني بها حالة التراكن حيث كل مجمع يركن إلى الآخر بأنه سيتولى القيام بهذه المهمة ثم لا يقوم بها وإذا فعل ذلك فليس على المستوى المطلوب.

ثانياً: لقد تغلب المجمعيون على كثير من العقبات والعوائق التي اعترضت سبيل عملهم المجمعي، ونجحوا كثيراً في تجاوز الخلافات التي شاعت بين علماء اللغة العربية في الماضي حول القياسي والسماعي والمشتقات والمصادر وغيرها، لكنهم لم يتغلبوا ولم ينجحوا في إيجاد صلة حقيقة وفاعلة تجعل من جهودهم هذه وسيلة للتغيير والتطوير في واقع اللغة العربية التي ينال منها الضعف ويحكمها التدهور يوماً بعد يوم، لا بين عامة الناس حسب، وإنما بين خريجي الجامعات وحملة الشهادات العالية وذلك ناتج عن غياب التواصل من المجامع

والمؤسسات التعليمية ابتداءً من التعليم العام حيث الرافد البشري الأعظم من أبناء الناطقين باللغة العربية وحتى الجامعات ، وعدم نجاح المحاولات الهادفة إلى تيسير قواعد النحو العربي وطريقة التدريس . إن هذه المؤسسات هي المجال العلمي والحيوي لاجتهادات المجامع والمكان المناسب لتطبيق قراءاتها. ولم يعد خافياً أن أضعف الناس استخداماً للغة وأكثرهم جهلاً بقواعد اللغة العربية هم خريجو الجامعات العربية التي لا تعطي أدنى اهتمام للغة وكأنها ليست لغة الأمة واللسان الجامع لأبنائها في مشرق الوطن العربي ومغربه.

وكان على هذه المجامع وهي تعمل جاهدة لإعانة اللغة على الاستجابة لمطالب الحياة الحديثة أن تربط اللغة بأبنائها وأن تعمل جهدها في أن تجعل الجامعات تحترم هذه اللغة وتقدمها على سائر اللغات ، ويكون تدريس العلوم بالعربية حصراً لا بأية لغة أجنبية انطلاقاً من أن هذه اللغة قادرة على استيعاب المعارف العلمية: القديم منها والحديث ، السائد والطارئ. ومالم تتمكن المجامع اللغوية من مواجهة هذا التحدي الأكبر فإن كل أعمالها الجليلة في خدمة اللغة ستظل محفوظة في الأدراج أو في الكتب يتناقلها أفراد ممن لا أثر لهم ولا تأثير.

ثالثاً: إن البحوث المستفيضة التي خرجت بها المجامع وتضمنت وجهات نظر أعضائها الأجلاء في أمور دقيقة بالغة الأهمية وأخرى ثانوية، كل هذا الجهد لن يكتب له النجاح ولن يجد من يتوقف عنده إذا لم تكن هذه المجامع وثيقة الصلة بوسائل الإعلام المقروؤة والمسموعة والمرئية ، لما لها جميعاً من تأثير يومي على القارئ والمستمع

والمشاهد ، وإذا لم تتمكن المجامع من استصدار قرارات رسمية ملزمة بجعل اللغة العربية الفصحى هي لغة هذه الوسائل الإعلامية فإن جهدها يبقى حبراً على ورق، فقد بدأ بعضهم بسبب من هذه الوسائل في الانحراف، ولم يعد المسلسل الإذاعي والتلفزيوني هو المكتوب والمنطوق بالعامية فقط بل صارت غالبية البرامج وحتى نشرات الأخبار تقرأ بالعامية المحلية . وبعض الفضائيات التي تفعل ذلك لا تصدر عن عواصم أجنبية وإنما عن عواصم عربية تابعة لدول عربية ذات عضوية كاملة في جامعة الدول العربية، وما تقوم به فضائياتها ليس إلاَّ من باب تحدي المشاعر واختيار الطريق الذي يؤدي إلى مزيد من تعزيز القطيعة بين أبناء الأمة الواحدة.

ولا ريب أنه من الخطأ تحميل المجامع وحدها مسؤولية مواجهة هذه التحديات، ولكن المجامع هي المكان الأول، والأَوْلى به إدراك خطورة هذه التحديات والتحذير من نتائجها وطرحها على بساط البحث لدى كبار المسؤولين في الدول العربية وإبراز ما ينتظر اللغة العربية من هبوطٍ وانحدارٍ بواسطة أجهزة رسميةٍ كان المؤمل أن تكون أداة توصيل للغة السليمة: وإذا بها تتحول إلى معاول ترمي إلى هدم أعز ما تمتلكه الأمة، وهو لسانها . والملاحظ أنه بالقرب منا توجد دول بل دويلات صغيرة ذات لغات ملفقة ومصطنعة استطاعت أن تجعل منها لغة شاملة وحرصت على أن يتم تعليم العلوم في هذه الجامعات بلغتها القومية لا حباً في اللغة فحسب وإنما احتراماً للسيادة الوطنية ورفضاً لكل ما من شأنه النيل من هذه السيادة .

ومن حقنا الآن أن نتذكر الأحلام التي صاحبت ظهـور وسـائل التوصيل الحديثة، كانت البداية مع الجريدة اليومية وما أشاعته من تفاؤل محبي اللغة من أنها تشكل فتحاً لباب المعرفة وتحسين مستوى اللغة. وجاء المذياع فكان في نظر أولئك المتفائلين باباً آخر، أمـا عندما ظهر التلفزيون فقد رأى فيه الجميع –المتفائلون والمتشائمون على السواء– مدرسة مفتوحة لتعليم عامة الناس لغتهم وتدريسهم على إتقان أداء الكلمات وضبطها. لكن ما حدث حتى الآن كان على العكس من ذلك تماماً فقد تحولت بعض الفضـائيات علـى كثرتها إلى مدرسة ولكن لتشويه نطق الكلمات والعبث بمكوناتهـا من خلال الأداء الممطوط والمتقطع لبعض المذيعات التي تتكسـر المفردات العظيمة على أفواههن أكثر مما كانت تتكسر على أفواه الأميين .

وليس المطلوب من المجمعيين –بالتأكيد– أن يطـالبوا العـاملين والعاملات في هذه الوسائل بأن ترتفع لغتهم إلى مستوى أسـاتذة هذه اللغة أو أن يتفصحوا في الأداء إلى درجة التقعر التي ستواجه حتماً بالسخرية اللاذعة ، لكن المطلوب ألاَّ تهبط الألفاظ المنطوقة في هذه الوسائل إلى درجة تغيب معها عروبتـها ويـتغير نطـق حروفها. وإذا كان المتلقون لكل ما يذاع وينشر في هذه الوسائل ليسوا من نوعية واحدة ولا في مستوى ثقافي متقارب ، إذ فـيهم المثقف، ومتوسط التعليم والأمي، فإن هذا التنوع في المستويات لا يفرض الهبوط إلى المستوى الأخـير ولا يتطلـب الارتفـاع إلى المستوى الأول وخير الأمور الوسط.

رابعاً: ومن أهم التحديات الذاتية التي تعاني منها المجامع تحدي البطء في أدائها وفي إنجازات مشروعاتها، صحيح أن ثمة ظروفاً ومعوقــات استثنائية تقف وراء ذلك الإبطاء والتلكؤ ، لكن باء مكان المجامع أن نتجاوز هذه السلبيات بتشكيل فــرق عمــل لمتابعــة تلــك المشروعات والعمل على إخراجها في وقت مناسب كي يســتفيد منها المهتمون والباحثون والقراء وتضاف إلى مــا يخــدم الحيــاة الثقافية العربية.

خامساً: يضاف إلى هذه التحديات الداخلية، تحدٍ خارجي أعظم يتمثــل في زحف جديد بالغ الخطورة: وهو العولمة وما يترتــب علــى ظهورها وانتشارها من مفاهيم متناقصة واستحقاقات منافية لكل ما هو قومي ووطني "أما النــزعة المضادة التي تواجهها نزعــة "العالمية" التي تتحدث عن وحدة العالم كله، لكن مــن خــلال مركز مهيمن" هو الأعلى بالقياس إلى بقيــة الأطــراف الأدنى، بالضرورة، وقد تتخذ هذه النــزعة مسميات أخرى فتغدو نزعة "إنسانية" منحازة إلى أصــلها التوليــدي ، حســب مصــالحه الاقتصادية وأطماعه السياسية، أو تغدو نزعة "كونيــة" تخايــل الأعين بلوامع تقنياتها المذهلة، لكن بما يبقى على مبــدأ التبعيــة نفسه . وقد اكتسبت النــزعة أخيراً، مسمى "العولمة" ووجدت فيها أحدث تجلياتها التي تغوى التابع بإلغاء حضوره الخــلاق أو ميراثه الأصيل أو خصوصيته الإيجابية، وذلك لكي يفنى التابع في المتبوع ، متحولاً إلى صورة أخرى مشــوهه مــن صــورته أو استجابة مشروطة بأصلها الــذي أصــبح واحــداً في تجلياتــه الكوكبية" [٦].

ملاحظات ختامية:

لا أستطيع أن أزعم أن هذا البحث قد أمسك بالتحديات والعوائق التي نشكو منها المجامع اللغوية العربية، لكنني لا أخفي أن عدة أمور استوقفتني واستغرقت الجانب الأكبر في هذا البحث المتواضع الذي تتركز نتائجه على الملاحظات الآتية:

أولاً: علينا جميعاً أن ندرك طبيعة التحدي اللغوي الخطير الذي لا يواجه المجامع اللغوية وحدها وإنما يواجه الأمة بأسرها.

ثانياً: ينبغي على هذه المجامع أن تواصل دورها. مهما كانت التحديات وأن لا ينال منها التجاهل الرسمي والشعبي أو يفت في عضد القائمين عليها والمشاركين فيها.

ثالثاً: أن تحاول هذه المجامع الخروج من عزلتها الطوعية وتسعى جاهدة إلى التواصل مع الكتّاب والمثقفين والعلماء ورجال السياسة للاستعانة بجهودهم في تأكيد دور هذه المجامع وتوضيح أهمية ما تقوم به من المحافظة على اللغة العربية في زمن العولمة وما تعد به هذه الهجمة العالم من تطورات قاهرة. للغات والثقافات .

رابعاً : العمل على توحيد المجامع الحالية في مجمع عربي واحد يكون المرجعية الأولى في شؤون اللغة وقضاياها، ويتعهد بالتنسيق بين المجامع القطرية ويعمل على تكامل جهودها. على أن تكون المجامع الأخرى فروعاً تابعة ومساعدة في هذا الحقل اللغوي البالغ الأهمية في حاضر الأمة ومستقبلها.

هوامش :

(١) د. شكري محمد عباد: العيش على الحافة، أصدقاء الكتـــاب، ، ١٩٩٨م ، ص١٦.

(٢) د. صالح أحمد العلي: صحيفة المجمع العلمي العراقي، المجلة (٣) ١٩٨٠م ص٧ .

(٣) أحمد عبد المعطي حجازي: صحيفة الحياة، العـــدد(١٦٠٢٤) ، فبراير ٢٠٠٧م ، ص٣٠ .

(٤) د. إبراهيم مدكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ١٩٣٢–١٩٦٢م، ص٩ .

(٥) محمود تيمور: القصة في الأدب العربي وبحوث أخرى، المكتبـــة العصرية ، بلا تاريخ ، ص٦٩.

(٦) د. جابر عصفور: حوار الحضـــارات والثقافـــات ، كتـــاب في جريدة العدد (١٠١) يناير ٢٠٠٧م ، ص١٨ .